الأسبلة السليمانية الباقية بالقدس الشريف

محمد حمزة إسماعيل الحداد، **الأسبلة السليمانية الباقية بالقدس الشريف**، دراسة تحليلية، **حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية، جامعة الكويت**، الحولية الثالثة والعشرون، ٢٠٠٣.

صدر عن مجلس النشر العلمي في جامعة الكويت عدد خاص من الحولية تناول فيه البروفيسور محمد حمزة الحداد من قسم التاريخ التابع لكلية الآداب، مسألة الأسبلة السليمانية، أي التي سُبِّلَت في سبيل الله جل ثناؤه،[1] وليس قصرا على المبنى فقط كما يشير عنوان البحث، إذ هناك امران لا بد من الاشارة اليهما، وهما: أن تعمير الأسبلة يعتبر فرعا من فروع العمارة المدنية في العمارة الإسلامية؛ وأن هذا الجانب هو جزء من المشاريع الخيرية أو الاقتصادية لمدينة القدس في الفترة العثمانية.

لا شك أن الأسبلة المشار إليها، تعود للقرن السادس عشر، وخاصة في فترة السلطان العثماني سليمان القانوني (أو الفاخر)، الذي حكم ما بين ١٥٢٠-١٥٦٦. ولا تزال آثار البعض منها باقية في مدينة القدس، وهي لا تتجاوز الستة أسبلة. ويشير الباحث إلى كونها جزءًا من مشروع تعميري لتسهيل وصول المياه إلى المدينة وبالتالي الى الحرم القدسي، في ولاية السطان المذكور.

لقد اظهر المؤلف جانبين يتعلقان بأهمية دراسة هذا الموضوع: فمن ناحية يظهر الباحث مدى أهمية الأسبلة لمدينة القدس، بالنظر لموقعها الطوبوغرافي والجيومورفولوجي الذي أدى إلى شحة المياه فيها. ومن ناحية أخرى تناول الجانب المعماري، أو الفني الخاص بعمارة الأسبلة وانشائها، منذ الفترة السلجوقية وحتى الفترة العثمانية. لقد قسّم الباحث دراسته إلى ثلاثة

---

[1] انظر: علي مبارك، **الخطط التوفيقية الجديدة لمصر القاهرة ومدنها وبلادها القديمة والشهيرة**، القاهرة، ١٨٨٧، ج٦، ص١٦٦.

أقسام، بحث في القسم الأول تاريخ إنشاء الأسبلة والتي تعود إلى عام ١٥٣٦م، وقد بنيت على مراحل زمنية قصيرة تدريجيا. أما عدد الأسبلة الباقية فهي ستة، ويبدو أن ثلاثة منها قد زالت معالمها، وهذا يعني أن عددها قد وصل إلى تسعة.

يذكر الباحث في القسم الأول أسماء هذه الأسبلة وموقعها الجغرافي. أول هذه الأسبلة يدعى سبيل "بركة السلطان" بظاهر القدس، يقع خارج البلدة القديمة في الجانب الشمالي؛ والثاني سبيل "باب القطانين" وهو أول الأسبلة داخل البلدة القديمة، يقع على الجانب الشرقي من "طريق الواد" قرب باب سوق القطانين الغربي؛ والثالث سبيل "باب السلسلة" من جهة الغرب؛ والرابع سبيل "باب الدويدارية" المعروف بسبيل سليمان قرب الحرم القدسي الشريف؛ والخامس سبيل "باب الناظر" لوقوعه عند ملتقى طريق باب الناظر بطريق الواد. وقد تم تعمير هذه الأسبلة عام ١٥٣٦. أما السبيل السادس، سبيل "باب الأسباط" وهو أحد أبواب الحرم الشمالية (أو سبيل ستنا مريم)، فقد نقشه الإنشائي، لذا لم يذكر المؤلف تاريخ إنشائه، بينما الخمسة الأولى نقش تاريخ تعميرها، وهي تعود وفق رأي الباحث إلى تاريخ إنشاء السبيل الأول.

يشير الباحث في القسم الثاني من الدراسة إلى أن الأسبلة السليمانية، قد خطط لها حسب نسق معماري واحد، بحيث نجد أن لكل سبيل نقشا وطرازا تخطيطيا معينا، لكن المتمعن فيها يجد أن لكل سبيل عناصره ومفرداته المعمارية. وهي بشكل عام ذات واجهة مستطيلة ومجوفة، ويحدد هيئة الأسبلة إطار حجري بارز، ناهيك عن اللوحات الرخامية التي تتضمن النقوش الإنشائية لهذه الأسبلة، وهي لا تزال في مواضعها، عدا سبيل "باب الأسباط" الذي فقدت لوحته كما أشرنا، لكنه اتخذ نمطا خاصا به، وتشير الكتابات المنقوشة إلى اسم السلطان الذي أمر بإنشائها وتعميرها.

أما في القسم الثالث، فقد تناول الباحث مسألة تحليل الأسبلة من الجانب الارخيولوجي والفني المعماري، اعتمادا على دراسات استشراقية، منها (Berchem. M.V.)، وأوضح بالإضافة إلى الأصول الإسلامية في العمارة، أن ثمة عناصر بيزنطية، لاتينية أو لاتينية مقلدة، في

بعض جوانب زخرفة الأسبلة. لكنها من حيث التصميم فقد جاءت وفق طراز الجشمة، وهي تعود الى العصر السلجوقي والعثماني. الا ان نمط تخطيطها يعود الى مصر وسوريا المملوكية، وتلاحظ فيها سمات التجديد والابتكار احيانا، هذا بالاضافة إلى النقوش الكتابية والزخرفية، والتي تتشابه مع عيون الماء القديمة في مدينة استانبول.

ويرجح الباحث أن "الجشمات" كانت معروفة في الأقطار العربية قبل العصر العثماني، خاصة وأن الطراز كان يطلق عليه بالعربية الحوض، أو السبيل، أو حوض السبيل. وقد اعتمد المؤلف على دراسات ووثائق تاريخية تعود للفترة المملوكية والعثمانية في كل من مصر وسوريا.

مما لاشك فيه أن هذه الدراسة تعتبر في غاية الأهمية لعدة عوامل، منها أن الباحث وثّق دراسته بوثائق ونصوص تاريخية وتراثية، بالإضافة إلى الدراسات الكثيرة بالعربية (العسلي، رائف نجم)، واللغات الأوروبية (Creswell, K. A. C; Kessler, C.)، فضلا عن كتب الرحالة الغربيين والمسلمين إلى مدينة بيت المقدس، وكذلك اللوحات والرسومات والخرائط التي تتعلق بالأسبلة، وهي نواح لها أهميتها في البحث العلمي. ولكن بالرغم من أن الكاتب أشار إلى كتب فضائل الأرض المقدسة وأهميتها في دراسته، لكنه لم يعتمد بشكل فعلي عليها؛ فثمة عشرات المخطوطات التي حققها الباحثون في هذا الأدب، وخاصة أدب الزيارات إلى الأماكن المقدسة، نذكر على سبيل المثال رحلات عبد الغني النابلسي (ت. ١٧٣١)، والبكري الصديقي الدمشقي (ت. ١٧٤٩) إلى القدس، التي تتضمن في الكثير من الأحيان مواد ارخيولوجية أو وصفية في غاية الأهمية. ومن جانب آخر، كان من المفروض جدلاً أن يتناول الباحث الأسبلة التي تعود للفترة المملوكية (مثل سبيل شعلان، سبيل قاسم باشا، وسبيل باب المغاربة وغيرها)، وايضا قناة العرّوب التي انشئت في الفترة المملوكية (١٣٢٨م) في عهد الامير تنكز، لحل ازمة نقص المياه في القدس، والتي قد تضيف الكثير على بحثه من عدة نواح. (حول قناة العروب سيصدر قريبا في بيروت كتاب للبروفيسور خليل عثامنة تحت عنوان "تاريخ فلسطين في العهد الايوبي"، يتناول فيه بعض المشاريع العمرانية في فلسطين). هذا وكان من الحري بالكاتب أيضا

أن يشير بالاضافة الى الجانب الديني والتاريخي الذي أبرزه، أن أعمال السلطان العثماني كان لها اهميتها السياسية والاستراتيجية والاقتصادية في القدس.

ينبغي لنا في النهاية أن نذكر امرين هامين:

اولهما: أن الباحث فان بيرشيم، المذكور اعلاه، الذي اعتمد عليه المؤلف، نشر عام ١٩٢٣ دراسة توثيقية لمعالم عمرانية في القدس، وخصص بها جانبا للأسبلة السليمانية. لذا فدراسة مؤلفنا ليست رائدة في هذا المجال.[٢]

ثانيهما: أن الباحثة מרים -רוזן איילון قد نشرت عام ١٩٨٩ دراسة شاملة، موثقة بالصور والخطط للأسبلة، التي عمرها السلطان سليمان، صدرت في جامعة Princeton. ومن المؤسف أن كاتب الدراسة لم يرجع اليها. وقد حددت الباحثة تاريخ انشاء الأسبلة بشكل دقيق، فالاول والثاني يعودان إلى عام ١٩٣٦، بينما الاربعة الباقية تعود الى عام ١٩٣٧.[٣]

غالب عنابسه

---

٢ Max van Berchem, *Matériaux our un Corpus Inscriptionum Arabicarum,* Jerusalem, "Ville" (Cairo, 1923), pp. 413-417.

٣ Myriam Rosen-Ayalon, "On Suleiman's Sabīls in Jerusalem" *The Islamic World, from Classical to Modern Times: Essays in honor of Bernard Lewis edited,* Princeton (1989), pp. 589-607.